

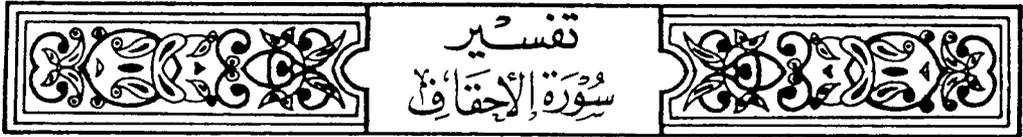
سخرياً تسخرون وتستهنئون بها ﴿وَعَزَّكَوْهُ الدُّنْيَا﴾ أي خدعتكم فاطمأنتم لها فأصبحتم من الخاسرين، ولهذا قال عز وجل: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُخْرِجُونَ مِنْهَا﴾ أي من النار ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي لا يطلب منهم العتبي، يل يعذبون بغير حساب ولا عتاب، كما تدخل طائفة من المؤمنين الجنة بغير عذاب ولا حساب.

﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٣٦)

ثم لما ذكر حكمه في المؤمنين والكافرين قال ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ﴾ أي المالك لهما وما فيهما، ولهذا قال ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٣٧)

﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني السلطان، أي هو العظيم المجيد الذي كل شيء خاضع لديه، فقير إليه وقد ورد في الحديث الصحيح يقول الله تعالى: «العظمة إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني واحداً منهما أسكتته ناري» رواه مسلم ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أي الذي لا يغالب ولا يمانع ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره. تعالى وتقدس، لا إله إلا هو.



تفسير سورة الاحقاف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حم﴾ (١)

تقدم أول سورة البقرة الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور.

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ (٢)

يخبر تعالى أنه أنزل الكتاب على عبده ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين، ووصف نفسه بالعزة التي لا ترام، والحكمة في الأقوال والأفعال ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾.

﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُذِرُوا

مُعْرِضُونَ﴾ (٣)

﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي لا على وجه العبث ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي وإلى مدة

معينة مضروبة لا تزيد ولا تنقص ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ أي لاهون عما يراد لهم، وقد أنزل الله إليهم كتاباً، وأرسل إليهم رسولاً، وهم معرضون عن ذلك كله، أي وسيعلمون غيب ذلك.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنُونِ يَكْتَبُونَ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْزَلْنَا مِنْهُ حَبْلًا مِمَّنْ يَبْتَلُونَ﴾

﴿قُلْ﴾ أي لهؤلاء المشركين العابدين مع الله غيره ﴿أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي أرشدوني إلى أي مكان الذي استقلوا بخلقه من الأرض ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي ولا شرك لهم في السماوات ولا في الأرض، وما يملكون من قطمير، إن الملك والتصرف كله لله عز وجل، فكيف تعبدون معه غيره، وتشركون به؟ من أرشدكم إلى هذا؟ من دعاكم إليه؟ أهو أمركم به؟ أم هو شيء افترحتموه من عند أنفسكم؟ ولهذا قال ﴿أَتُنُونِ يَكْتَبُونَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ أي هاتوا كتاباً من كتب الله المنزلة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بأمركم بعبادة هذه الأصنام ﴿أَوْ أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْزَلْنَا مِنْهُ حَبْلًا مِمَّنْ يَبْتَلُونَ﴾ أي دليل بين على هذا المسلك الذي سلكتموه ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي لا دليل لكم، لا نقلياً ولا عقلياً على ذلك.

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ أي لا أضل ممن يدعو من دون الله أصناماً، ويطلب منها ما لا تستطيعه إلى يوم القيامة، وهي غافلة عما يقول، لا تسمع ولا تبصر ولا تبطش، لأنها جماد حجارة صم.

﴿وَإِذَا حُيِّرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾

﴿وَإِذَا حُيِّرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ أي سيخونونهم أحوج ما يكونون إليهم.

﴿وَإِذَا نُنْتَلَىٰ عَلَيْهِمْ مَاءٌ بَيْنْتُمْ أَنْ يَشْرَبُوا مِنْهُ يَقُولُونَ هَذَا مَاءٌ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾

يقول عز وجل مخبراً عن المشركين في كفرهم وعنادهم: إنهم إذا نتلى عليهم آيات الله بينات، أي في حال بيانها ووضوحها وجلالها يقولون ﴿هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي سحر واضح، وقد كذبوا وافتروا، وضلوا وكفروا.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ

شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ يعنون محمداً ﷺ. قال الله عز وجل: ﴿قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾

أي لو كذبت عليه، وزعمت أنه أرسلني، وليس كذلك لعاقبني أشد العقوبة، ولم يقدر أحد من أهل الأرض، لا أنتم، ولا غيركم أن يجيرني منه ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفْعَلُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ هذا تهديد لهم، ووعد أكيد، وترهيب شديد ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ترغيب لهم إلى التوبة والإنابة، أي ومع هذا كله إن رجعتم وتبتم تاب عليكم وعفا عنكم، وغفر ورحم.

﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مَنِ الرَّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا يَكْفُرُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾

﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مَنِ الرَّسُلِ﴾ أي لست بأول رسول طرق العالم، بل قد جاءت الرسل من قبلي، فما أنا بالأمر الذي لا نظير له حتى تستنكروني، وتستبعدوا بعثي إليكم، فإنه قد أرسل الله جل وعلا قبلي جميع الأنبياء إلى الأمم. ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا يَكْفُرُ﴾ عن الحسن البصري في قوله تعالى ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا يَكْفُرُ﴾ قال: أما في الآخرة فمعاذ الله، وقد علم أنه في الجنة، ولكن قال: لا أدري ما يفعل به ولا بكم في الدنيا، أخرج كما أخرجت الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من قبلي؟ أم أقتل كما قتلت الأنبياء من قبلي؟ ولا أدري أيخسف بكم أو ترمون بالحجارة؟ وهذا القول هو الذي عوّل عليه ابن جرير، وأنه لا يجوز غيره، ولا شك إن هذا هو اللائق به ﷺ، فإنه بالنسبة إلى الآخرة جازم أنه يصير إلى الجنة ومن اتبعه، وأما في الدنيا فلم يدر ما كان يؤول إليه أمره وأمر مشركي قريش إلى ماذا؟ أيؤمنون أم يكفرون فيعذبونه فيستأصلون بكفرهم؟ وأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن أم العلاء قالت: طاولهم في السكنى حين اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين عثمان بن مظعون رضي الله عنه، فاشتكى عثمان رضي الله عنه عندنا، فمرضناه، حتى إذا توفي أدرجناه في أثوابه، فدخل علينا رسول الله ﷺ فقلت: رحمك الله أبا السائب، شهادتي عليك لقد أكرمك الله عز وجل، فقال رسول الله ﷺ وما يدريك أن الله تعالى أكرمه؟ فقلت: لا أدري، بأبي أنت وأمي، فقال رسول الله ﷺ: «أما هو فقد جاءه اليقين من ربه وإنني لأرجو له الخير، والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل به» فقلت: والله لا أزكي أحداً بعده أبداً، وأحزنتني ذلك فنمت فرأيت لعثمان رضي الله عنه عيناً تجري، فجئت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بذلك، فقال رسول الله ﷺ: «ذاك عمله» انفرد به البخاري دون مسلم. وفي هذا وأمثاله دلالة على أن لا يقطع لمعين بالجنة إلا الذي نص الشارع على تعيينهم كالعشرة وابن سلام والعميصاء وسراقة وعبد الله بن عمرو بن حرام ولد جابر، والقراء السبعين الذي قتلوا ببئر معونة، وزيد بن حارثة، وجعفر وابن رواحة، وما أشبه هؤلاء رضي الله عنهم ﴿إِن أَنبِئُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ﴾ أي إنما أتبع ما ينزله الله علي من الوحي ﴿وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي بين النذارة، أمري ظاهر لكل ذي لب وعقل.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكُفْرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَأَمَنْ
وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾﴾

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ﴾ هذا القرآن ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكُفْرْتُمْ بِهِ﴾ أي ما ظنكم به ما الله صانع بكم إن كان هذا الكتاب الذي جئتكم به قد أنزله علي لأبلغكموه، وقد كفرتم به وكذبتموه ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ﴾ أي وقد شهدت بصدقه وصحته الكتب المتقدمة المنزلة على الأنبياء قبلي بشرت به، وأخبرت ما أخبر هذا القرآن به ﴿فَأَمَنْ﴾ أي هذا الذي شهد بصدقه من بني إسرائيل لمعرفة بحقيقته ﴿وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ أنتم عن اتباعه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ وهذا الشاهد اسم جنس يعنى عبد الله بن سلام وغيره، فإن هذه الآية مكية نزلت قبل عبد الله بن سلام رضي الله عنه.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ
هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١٨﴾﴾

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ أي قالوا عن المؤمنين بالقرآن: لو كان القرآن خيراً ما سبقنا هؤلاء إليه، يعنون بلالاً وعماراً وصهيباً وخباباً رضي الله عنهم وأشباههم ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ﴾ أي بالقرآن ﴿فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ أي كذب قديم، أي مأثور عن الناس الأقدمين فينقصون القرآن وأهله، وهذا هو الكبر الذي قال رسول الله ﷺ «بطر الحق وغمط الناس».

﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا
وَيُبَشِّرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩﴾﴾

﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ﴾ وهو التوراة ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ﴾ يعني القرآن ﴿مُصَدِّقٌ﴾ أي لما قبله من الكتب ﴿لِسَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي فصيحاً بيناً واضحاً ﴿لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَيُبَشِّرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي مشتمل على النذارة للكافرين والبشارة للمؤمنين.

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٠﴾﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ﴾ أي فيما يستقبلون ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما خلفوا.

﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢١﴾﴾

﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي الأعمال سبب لنيل الرحمة لهم، وسبوغها عليهم.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾

لما ذكر تعالى في الآية التوحيد له وإخلاص العبادة والاستقامة إليه عطف بالوصية بالوالدين كما هو مقرون في غير ما آية من القرآن فقال ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ أي أمرناه بالإحسان إليهما، والحنو عليهما، عن سعد رضي الله عنه قال: قالت أم سعد لسعد: أليس قد أمر الله بطاعة الوالدين، فلا أكل طعاماً ولا أشرب شراباً حتى تكفر بالله تعالى، فامتنعت من الطعام والشراب حتى جعلوا يفتحون فاهما بالعصا، ونزلت هذه الآية ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ رواه مسلم وأهل السنن إلا ابن ماجه ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا﴾ أي قاست بسببه في حمله مشقة وتعباً من وحم وغثيان وثقل وكرب إلى غير ذلك مما تنال الحوامل من التعب والمشقة. ﴿وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ أي بمشقة أيضاً من الطلق وشدته ﴿وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ وقد استدل علي رضي الله عنه بهذه الآية مع التي في لقمان ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ [لقمان: 14] وقوله تبارك وتعالى ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْمِيَ الرِّضَاعَةَ﴾ [البقرة: 233] على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، وهو استنباط قوي صحيح، ووافقه عليه عثمان وجماعة من الصحابة رضي الله عنهم. ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ أي قوي وشب وارتجل ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ أي تنهى عقله، وكمل فهمه، وحلمه ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي﴾ أي ألهمني ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ أي في المستقبل ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ أي نسلي وعقبى ﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ وهذا فيه إرشاد لمن بلغ الأربعين أن يجدد التوبة، والإنابة إلى الله عز وجل، ويعزم عليها.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَحْسَنِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَحْسَنِ الْجَنَّةِ﴾ أي هؤلاء المتصفون بما ذكرنا، التائبون إلى الله، المنيبون إليه، المستدركون ما فات بالتوبة والاستغفار هم الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم فيغفر لهم الكثير من الزلل، ونتقبل منهم اليسير من العمل ﴿فِي أَحْسَنِ الْجَنَّةِ﴾ أي هم في جملة أصحاب الجنة، وهذا حكمهم عند الله، كما وعد الله عز وجل من تاب إليه وأتاب، ولهذا قال تعالى ﴿وَعَدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾.

﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِي أَنْ أَخْرَجَ وَقَدْ خَلْتُ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَعْجِلَانِ اللَّهَ وَبَيْتِكَ عَائِمِينَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾﴾

لما ذكر تعالى حال الداعين للوالدين البارين بهما وما لهم عنده من الفوز والنجاة عطف بحال الأشقياء العاقين للوالدين فقال ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالَيْدِي أُفٍ لَكُمَا﴾ وهذا عام في كل من قال هذا، ومن زعم أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما فقوله ضعيف لأن عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما أسلم بعد ذلك، وحسن إسلامه، وكان من خيار أهل زمانه، وروى العوفي عن ابن عباس أنها نزلت في ابن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وفي صحة هذا نظر والله أعلم ﴿أَتَعَدَّائِي أَن أُخْرَجَ﴾ أي أبعث ﴿وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي﴾ أي قد مضى الناس فلم يرجع منهم خير ﴿وَهُمَا يَسْتَنِيَانِ اللَّهَ﴾ أي يسألان الله فيه أن يهديه ويقولان لولدهما ﴿وَتِلْكَ ءَايَاتُ الَّذِي كَفَرَ فَأُبَيِّنُ لَنَاسٍ كَثِيرٍ إِنَّا بِمَا يَكْفُرُونَ﴾

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمْرِ قَدْ خَلَّتْ مِن قَبْلِهِمْ مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خٰسِرِينَ﴾ (٨)

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمْرِ قَدْ خَلَّتْ مِن قَبْلِهِمْ مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خٰسِرِينَ﴾ (٨) أي دخلوا في زمرة أشباههم وأضرابهم من الكافرين الخاسرين أنفسهم وأهلهم يوم القيامة.

﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوقِفَهُمْ أَعْمَلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٩)
﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ أي لكل عذاب بحسب عمله ﴿وَلِيُوقِفَهُمْ أَعْمَلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي لا يظلمهم مثقال ذرة فما دونها.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَدَّبْتُم طَبِئِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمَنَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ يُجْرَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمِمَّا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ (١٠)
﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَدَّبْتُم طَبِئِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمَنَعْتُم بِهَا﴾ أي يقال لهم ذلك تقريباً وتوبيخاً، وقد تورع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن كثير من طيبات المآكل والمشرب وتنزه عنها، وكان يقول: إني أخاف أن أكون كالذين قال الله لهم ووبخهم وقرعهم ﴿أَدَّبْتُم طَبِئِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمَنَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ يُجْرَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمِمَّا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ فجوزوا من جنس عملهم، فكما متعوا أنفسهم، واستكبروا عن اتباع الحق، وتعاطوا الفسق والمعاصي جازاهم الله تبارك وتعالى بعذاب الهون، وهو الإهانة والخزي والآلام الموجعة، والحسرات المتتابعة، والمنازل في الدرجات المفظعة. أجازنا الله من ذلك كله.

﴿وَأَذَكُرُ مَا عَادَ إِذْ أُنذَرَ قَوْمُهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النَّذْرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِن خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (١١)

يقول تعالى مسلماً لنبيه ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه ﴿وَأَذَكُرُ مَا عَادَ﴾ وهو هود عليه السلام بعثه الله

إلى عاد الأولى، وكانوا يسكنون الأحقاف جمع حقف وهو الجبل من الرمل، قال قتادة: ذكر لنا أن عاداً كانوا حياً باليمن أهل رمل مشرفين على البحر بأرض يقال لها: الشحر. ﴿وَقَدْ خَلَّتْ أَلْدُدُّ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ يعني وقد أرسل الله تعالى إلى من حول بلادهم في القرى مرسلين ومنذرين ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَِّّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

﴿قَالُوا أَحِثَّنَا لِنَأْفِكَا عَنْ آلِهَتِنَا فَإِنَّا بِمَا نَعُدُّنَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٢٢)

﴿قَالُوا أَحِثَّنَا لِنَأْفِكَا عَنْ آلِهَتِنَا﴾ أي لتصدنا عن آلهتنا ﴿فَأِنَّا بِمَا نَعُدُّنَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ استعجلوا عذاب الله وعقوبته استبعاداً منهم وقوعه.

﴿قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَدُّكُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ﴾ (٢٣)

﴿قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي الله أعلم بكم إن كنتم مستحقين لتعجيل العذاب فسيفعل ذلك بكم، وأنا أنا فمن شأني أني أبلغكم ما أرسلت به ﴿وَلَكِنِّي أَرَدُّكُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ﴾ أي لا تعقلون ولا تفهمون.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا

عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢٤)

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ﴾ أي لما رأوا العذاب مستقبلهم اعتقدوا أنه عارض مطر ففرحوا واستبشروا به، وقد كانوا محلين إلى المطر. قال الله تعالى ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي هو العذاب الذي قلتُم ﴿فَأِنَّا بِمَا نَعُدُّنَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

﴿تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ (٢٥)

﴿تُدْمِرُ﴾ أي تحرب ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ من بلادهم مما شأنه الخراب ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ أي بإذن الله لها ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَكِنُهُمْ﴾ أي قد بادوا كلهم، ولم تبق لهم باقية ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي هذا حكمنا فيمن كذب رسلنا، وخالف أمرنا.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِن مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَابْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ

وَلَا ابْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ

يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٢٦)

يقول تعالى: ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعاً وabصرًا وأفئدةً فما أغنى عنهم سمعهم ولا ابصرهم ولا أفئدتهم من شئ إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم العذاب والنكال

الذي كانوا يكذبون به ويستبعدون وقوعه، أي فاحذروا أيها المخاطبون أن تكونوا مثلهم فيصيبكم مثل ما أصابهم من العذاب في الدنيا والآخرة.

﴿وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَفْنَا آلَايَتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧﴾﴾

﴿وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ﴾ يعني أهل مكة، وقد أهلك الله الأمم المكذبة بالرسول مما حولها كعاد وكانوا بالأحقاف بحضرموت عند اليمن، وشمود وكانت منازلهم بينهم وبين الشام، وكذلك سبأ وهم أهل اليمن، ومدین وكانت في طريقهم وممرهم إلى غزة، وكذلك بحيرة قوم لوط كانوا يَمرون بها أيضاً. وقوله عز وجل: ﴿وَصَرَفْنَا آلَايَتِ﴾ أي بينها وأوضحناها ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا

يَفْتُرُونَ ﴿١٨﴾﴾

﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً﴾ أي فهل نصرورهم عند احتياجهم إليهم ﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾ أي بل ذهبوا عنهم أحوج ما كانوا إليهم ﴿وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ﴾ أي كذبهم ﴿وَمَا كَانُوا يَفْتُرُونَ﴾ في اتخاذهم إياهم آلهة، وقد خابوا وخسروا في عبادتهم إياها، واعتمادهم عليها.

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ

قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

روى الإمام أحمد عن الزبير ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ قال بنخلة، ورسول الله ﷺ يصلي العشاء الآخرة ﴿كَأَدْوًا يَكُونُونَ عَلَيْهِ يَدًا﴾ [الجن: 19] وعن ابن عباس أنهم سبعة من جن نصيبين. وعن ابن عباس قال: ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن ولا رآهم، وإنما أوحى إليه قول الجن. وهذا الذي حكاه ابن عباس إنما هو أول ما سمعت الجن قراءة رسول الله ﷺ وعلمت حاله لم يقرأ عليهم، ولم يرههم، ثم بعد ذلك أتاه داعي الجن فقرأ عليهم القرآن، ودعاهم إلى الله عز وجل كما رواه عبد الله بن مسعود. وقوله تعالى ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾ أي طائفة من الجن ﴿يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا﴾ أي استمعوا، وهذا أدب منهم ﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾ أي فرغ كقوله تعالى ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ﴾ [الجمعة: 10] وقوله: ﴿وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ أي رجعوا إلى قومهم فأنذروهم ما سمعوه من رسول الله ﷺ كقوله تعالى ﴿لِيَسْتَفْقَهُوا فِي الدُّنْيَا وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: 122].

﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ

وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣١﴾﴾

ثم إنه تعالى فسر إنذار الجن لقومهم فقال مخبراً عنهم ﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ

مُوسَى ﴿ وَلَمْ يَذْكُرُوا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِأَنَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْإِنْجِيلَ ، فِيهِ مَوَاعِظُ وَتَرْقِيقَاتُ ، وَقَلِيلٌ مِنَ التَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ ، وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ كَالْمَتَمِّمِ لِشَرِيعَةِ التَّوْرَةِ ، فَالْعَمْدَةُ هُوَ التَّوْرَةُ ، فَهَذَا قَالُوا ﴿ أَنْزَلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى ﴾ وَهَكَذَا قَالَ وَرَقَةُ بْنُ نَوْفَلٍ : بَخَ بَخَ هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي كَانَ يَأْتِي مُوسَى ، يَا لَيْتَنِي أَكُونُ فِيهَا جَدْعًا ﴿ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أَي مِنَ الْكُتُبِ الْمُنزَلَةِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِهِ . وَقَوْلُهُمْ ﴿ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ ﴾ أَي فِي الْإِعْتِقَادِ وَالْإِخْبَارِ ﴿ وَإِلَى طَرِيقِ مُسْتَقِيمٍ ﴾ فِي الْأَعْمَالِ ، فَإِنَّ الْقُرْآنَ مُشْتَمِلٌ عَلَى شَيْئَيْنِ : خَبْرٌ وَطَلْبٌ ، فَخَبْرُهُ صَدَقَ ، وَطَلْبُهُ عَدْلٌ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الأنعام : 115] .

﴿ يَفْقَوْمَنَا أُجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجْزِمَ مِنْ عَذَابِ الْبُيُوتِ ﴾ ﴿ يَفْقَوْمَنَا أُجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ ﴾ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى أَرْسَلَ مُحَمَّدًا ﷺ إِلَى الثَّقَلَيْنِ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ ، حَيْثُ دَعَاهُم إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَقَرَأَ عَلَيْهِمُ السُّورَةَ الَّتِي فِيهَا خُطَابُ الْفَرِيقَيْنِ وَتَكْلِيفُهُمْ وَوَعْدُهُمْ وَوَعِيدُهُمْ ، وَهِيَ سُورَةُ الرَّحْمَنِ وَهَذَا قَالَ ﴿ أُجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ ﴾ وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ﴾ قِيلَ : ﴿ وَمِنْ ﴾ هَذِهِ زَائِدَةٌ ، وَفِيهِ نَظَرٌ ، لِأَنَّ زِيَادَتَهَا فِي الْإِبْطَاتِ قَلِيلٌ ، وَقِيلَ : إِنَّهَا عَلَى بَابِهَا لِلتَّبَعِيضِ ﴿ وَيُجْزِمُ مِنْ عَذَابِ الْبُيُوتِ ﴾ أَي وَيَقِيكُمْ مِنْ عَذَابِهِ الْأَلِيمِ .

﴿ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ ﴿ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ ﴾ أَي بَلْ قُدْرَةُ اللَّهِ شَامِلَةٌ لَهُ وَمُحِيطَةٌ بِهِ ﴿ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ﴾ أَي لَا يُجْبِرُهُمْ مِنْهُ أَحَدٌ ﴿ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ وَهَذَا مَقَامٌ تَهْدِيدٌ وَتَرْهيبٌ ، فَدَعَاوُ قَوْمِهِمْ بِالترغيبِ وَالتَّرهيبِ وَهَذَا نَجْعٌ فِي كَثِيرٍ مِنْهُمْ ، وَجَاؤُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَفُودًا وَفُودًا .

﴿ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُنَّ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُمْ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ﴿ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُنَّ ﴾ أَي وَلَمْ يَكْرَهُهُ خَلْقَهُنَّ ، بَلْ قَالَ لَهَا : كُونِي فَكَانَتْ بِلا مَمَانَةَ وَلَا مُخَالَفَةَ ، بَلْ طَائِعَةٌ خَائِفَةٌ وَجَلَّةٌ ، أَفَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ؟ ﴿ بَلَى إِنَّهُمْ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

يقول تعالى : أو لم ير هؤلاء المنكرون للبعث يوم القيامة المستبعدون لقيام الأجساد يوم المعاد ﴿ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُنَّ ﴾ أَي وَلَمْ يَكْرَهُهُ خَلْقَهُنَّ ، بَلْ قَالَ لَهَا : كُونِي فَكَانَتْ بِلا مَمَانَةَ وَلَا مُخَالَفَةَ ، بَلْ طَائِعَةٌ خَائِفَةٌ وَجَلَّةٌ ، أَفَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ؟ ﴿ بَلَى إِنَّهُمْ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ ﴾ أَي

ثم قال جلا جلاله متهدداً ومتوعداً لمن كفر به ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ ﴾ أَي

